أين حافظتي؟

لا أذكرُ من أنا، ومن أين جئت، وإلى أين سأذهب! لا أذكر اسمي ولا سني، لا أذكر حتى إن كنت متزوجة أم عزباء .

الفتاة التي تسكن معي تقول إنها ابنتي وتخاطبني ب "ماما" ، أنا لا أعرفها ولا أذكر أنها ابنتي، لكني أشعر بشيء ما يربطني بها ويجذبني إليها، فيها شيئاً قريبٌ مني، هي تقول أنها تشبهني كثيراً حين كنتُ في مثل عمرها .. ربما .

هي تضع أوراقاً صغيرة على أشياء تقول إنها أشيائي، تكتب على تلك الوريقات أسماء تلك الأشياء وتلصقها عليها بإحكام حتى إذا ما احتجتُ منها شيئاً أقوم بقراءة الورقة الصغيرة الملصقة عليها وأتعرف عليها وأستعملها حسب حاجتي لها .

مَن هذه المرأة النحيلة شاحبة الوجه ذات الشعر الرمادي القصير والتي تقف أمامي وتنظر إلي؟! أعرف هذه الملامح ولكني لا أذكر صاحبتها ، قالت لي الفتاة الجميلة التي تسكن معي وتخاطبني ب "ماما" إن هذه المرأة

هي أنا ، وأن هذا الشيء الذي يعكس صورتي هو مرآة، نعم أعرف المرآة لكنني لا أعرف المرأة التي بداخلها، إنها لا تشبهني !

ثم ما هذا الشيء الموضوع على ... على ماذا ؟ لا أذكر اسمه ، لا يهم ، المهم أن هذا الشيء مكتوب عليه "ألبوم صور" قالت لي الفتاة الجميلة التي تسكن معي وتخاطبني ب "ماما" أن الأشخاص الموجودين في الصور هم نحن ، لا أدري ماذا تقصد بكلمة "نحن" ! أه تذكرت : قالت لي : هذه انتِ يا ماما قبل عشرين عاماً لا قبل عشرة أعوام لا قبل ثلاثين عاماً ، لا أدري كم قالت بالتحديد، كل ما أذكره أنها قالت لي إن الطفلة الصغيرة التي تجلس على فخذي هي نفسها التي تخاطبني، وإن الطفل الصغير الذي يحمله رجل ذو ابتسامة هادئة هو ابني وأخوها الصغير، والرجل الذي يحمله هو أبوها وزوجي، أين هما إذن؟ أين هذان الرجلان؟ أين زوجي وابني؟ لا أذكر ما قالته لي عنهما .

منذ فترة، فقدتُ شيئاً ثميناً جداً ، قالوا لي أن الشيء الذي فقدته هو ذاكرتي ، لم أفهم المصطلح فأوضحوا لي أن الذاكرة هي عبارة عن حافظة تُسجل فيها تلقائياً حياتنا منذ الولادة وحتى الموت ، أين ذهبت حافظتي؟ فقدتها، ضاعت مني أو ضعتُ أنا منها، أضناني البحث عنها ولم أجدها.

بحثتُ عنها تحت هذا الشيء المكتوب عليه سرير ،وفوق هذا الشيء المكتوب عليه دولاب، وبين هذه الأشياء المكتوب عليها ملابس ، ولم أعثر لها على أي أثر .

منذُ عدة أسابيع أو أيام أو شهور نزلتُ إلى الشارع لأبحثُ عنها ، قابلني ذلك الرجل القابع أمام البناية التي أقطن بها وسألني: رايحة فين ياست؟ قلتُ له: أبحث عن ذاكرتي؟ ضحك الرجل ولا أدري لماذا ضحك! ثم جذبني من يدي وأصعدني إلى شقتي قالاً لي إنه سيبحث معي عن ذاكرتي المفقودة في بيتنا . صرخت الفتاة الجميلة التي تقطن معي وتخاطبني ب "ماما" حين رأتني أمام باب الشقة مع ذلك الرجل الضاحك ، قالت: أين ذهبتِ يا "ماما" ؟ أجبتها: ذهبتُ أبحث عن ذاكرتي المفقودة ، انزعجت جداً وسحبتني إلى الداخل وأغلقت الباب بعد أن شكرت الرجل ، واحتضنتني وبكت ، بكيتُ لبكائها ، لا يمكنني رؤيتها تبكي ، تتمزق أحشائي إذا ما لاح الحزن أو الدموع في عينيها . لماذا أتذكر هذا الموقف بالذات ؟! ولماذا أرتجف كلما سمعت كلمة "ماما" من تلك الفتاة الجميلة ؟

كلما سمعتها تخاطبني ب "ماما" تتراءى أمامي صور ضبابية كثيرة لأشخاصٍ أسمعهم ينادوني ب "ماما" ، أسمعهم يضحكون وأنا أضحك معهم ، أرى شبح بيت قديم، أشتم رائحته التي ألفتها منذ زمن ، لكن

سرعان ما تتلاشى الرائحة والبيت والأشخاص والضحكات ، وأراني قابعة وحدي في زواية من بيت متهدم، ثم أنظر بعيداً على مداد بصري لأجد تلك الفتاة الجميلة فاتحة لي ذراعيها وتناديني "ماما" ، أركض نحوها وتركض نحوي حتى نلتقي وأرتمي بين ذراعيها كطفلٍ تائه وجد أمه أخيراً .

أتمنى لو أنني أجد ذلك الشيء المسمى "حافظة" لأحتفظ بها ولا أضيعها مني أبداً ، سأستبدل بها تلك الوريقات الصغيرة الملصقة على كل أشيائي، أظنني لن أحتاج إليها بعد، ستعيد إليَّ ذاكرتي المفقودة أسماء الأشياء ، والأشخاص، والأماكن . سأتذكر حتماً ذلك الرجل الباسم الواقف بجواري في الصورة ، وذلك الطفل الذي يحمله على ذراعه، وتلك الطفلة التي تجلس على فخذي ، وتلك الفتاة الجميلة التي تقطن معي وتخاطبني ب "ماما" .